مراحل تطوير اللغة وتصييغ اللهجات؛ لماذا يجب أن يحظى العالم بجميع اللغات والثقافات؟

Muhammad Azhar
Jawaharlal Nehru University, India
Azharjnu1@gmail.com

الملخص

اللغة من أهم المميزات الإنسانية ومن عجائب العطايا الطبيعية التي يتزين بها الإنسان بل هي أساس الإنسان .في غياب اللغة يساوي الإنسان الأنعام مهما كانت الفكرة وقدرة التفكير الإنساني .ومن العجائب الإنسانية أنها سواء بسواء فيظاهر الأعضاء ومرحلة تطويرها بنسبة اللحم والدم ولكن ما يخرج من هذه الأعضاء خاصة من اللسان، يختلف تماما من مكان إلى مكان رغم الألفاظ المماثلة في كل لغة إلى حد كبيرو ولكن إذا تتركب هذه الألفاظ، فسمعها يختلف من سماعنا .لما ذا يحدث هذا ولما ذا تختلف اللغة واللهجات في أنحاء مختلفة ومن يصنع ذلك؟ يكمن هذا البحث المتواضع في الإجابة عن هذه الأسئلة.

الكلمات المفتاحية :تطوير اللغة، تصييغ اللهجات، الثقافة

Abstract

Language is one of the most important human characteristics and wonders of natural gifts that adorn the human, but the basis of man. In the absence of language, man equals cattle regardless of the idea and the ability of human thought. It is a humanitarian wonder that it is both in the appearance of members and the stage of development by the proportion of flesh and blood, but what comes out of these members, especially from the tongue, is quite different from place to place, despite the similar words in each language to a large extent, but if these words are composed, hearing them differs from hearing. Why does this happen and why does language and dialects differ in different parts? This article is to answer these questions.

Keywords: Language development, dialecting, culture

خلفية البحث

ما هي اللغة؟

اللغة: لغة أصلها لغو، لامها واو فهي واوي، وقيل لغي، لامها ياء فهي ياءي، ومصدرها اللغو، واللغا. جاء في اللسان: "أصلها: لُغوة، وقيل أصلها: لغي أو لغو، والهاء عوض."[١]

وقال الأزهري: "اللغة من الأسماء الناقصة، أصلها لغوة من لغا إذا تكلم"، وأكد ابن جني في كتابه "سر صناعة الإعراب" أن المحذوف هو اللام وليس العين.[٢]

وقال ابن جني (ت ٣٩٢هج) "وأما تصريفها، ومعرفة حروفها، فإنها فعلة من لاغوت، أي تكلمت، وأصلها: لُغوة ككرة، وقلة و ثبة كلها واوي كقولهم كروت بالكرة، وقلوت بالقلة، وقيل معناها لغي يلغى إذا هذى، ومصدره اللغا، قال:

ورب أسراب حجيج كظم عن اللغا ورقت التكلم

وكذلك اللغو، كما في القرآن الكريم: واللذين لايشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما (الفرقان:٧٢)، أي بالباطل. وفي الحديث: "من قال في الجمعة: صهٍ فقد لغا" أي تكلم.[٣]

ونقل السيوطي عن إمام الحرمين: "اللغة من لغي يلغى من باب رضي إذا يحج بالكلام، وقيل من لغي يلغى".

وهنالك فرق بين اللغة واللغو واللغا: فاللغو واللغا: السقط ومالا يعتد به من كلام وغيره ولايحصل منه على فائدة ولانفع، أو ما كان من الكلام غير معقود عليه، قال تعالى: "لايؤاخذكم الله في اللغو في أيمانكم" (البقرة: ٢٢٥، المائدة: ٨٩). ومنها كلمة "لاغية بمعنى الفاحشة، وفي القرآن: "لا تسمع فيها لاغية" (الغاشية: ١١) أي كلمة قبيحة أو فاحشة، وقيل: اللغا: معناه الصوت، او اللفظ، كما في القرآن: "لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه" (فصلت : ٢٦) أي ألغطوا فيه واجعلوا الغوغاء.

وقيل اللغو: معناه التكلم، كما ورد في الحديث: "من قال يوم الجمعة والإمام يخطب لصحابه: صهٍ فقد لغا"،[٤] أي تكلم، وقيل قد خاب. وآرى أنه لغي: تحدث باللغط، وهو ما لايفهم ولايعتد به مما يفسد الخطبة والصلاة.

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن اللغو هو النطق، ولذا قالوا: لغوي الطير: أي أصواتها، والطير تلغي بأصواتها أي تنغم، واللغوي صدى القطا (طائر). ويقال سمعت لغو الطائر ولحنه.

ولغى بالشيء يلغى لغا: لهج، أي أكثر فيه، ولغوت بكذا: لفظت به وتكلمت. وإذا أردت أن تسمع من الأعراب فاستغلهم.

قال الراعي يصف القطا:

---

[١] ابو الفضل مُحَمَّد بن مكرم بن .... الأفريقي المصري: لسان العرب، بيروت، مادة لغا، ج ٢٥٠/١٠

[٢] سرصناعة الإعراب: دراسة وتحقيق حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط. ٤١٣/٢ هج، ١٩٩٣م.

[٣] الخصائص أبو الفتح عثمان بن جني: تحقيق مُحَمَّد علي النجار، الهيئة ا لمصرية العامة للكتاب، ١٤١٩هـ / ١٩٨١م. والحديث رواه البخاري في كتاب الجمعة.

[٤] رواه البخاري في كتاب الجمعة، باب "الإنصات يوم الجمعة".

قوارب الماء لغواها مبينة في لجة الماء لما راعها الفزع

وتقول: لغة العرب أفصح اللغات، وبلاغتها أتم البلاغات.[٥]

واستخدم كلمة لغة بمعنى اللهجة، فلغات العرب في كلام القدماء يعني لهجاتهم، واللغات المذمومة في كلامهم تعني اللهجات الشاذة التي لا قياس عليها، ولا يعتد بها في العربية الفصحى.

الفرق بين اللغة واللسان:

كلمة اللسان استخدمت كثيرا في معنى اللغات. وقد أطلق العرب قديما على اللغة اسم اللسان مجازا باعتبار ألته. فاللسان هو العضو الأساسي في الكلام، ولايستطيع الإنسان إقامة لغة مفهومة دون اللسان الذي يشارك في نطق معظم الأصوات العربية مشاركة أساسية. وقد عبر القرآن الكريم عن معنى اللغة بلفظ اللسان، قال تعالى: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم" (إبراهيم: ٤). هناك اللسان بمعنى اللغة كما أكده حديث، رواه أبو ذر ﷺ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم "لم يبعث الله عز وجلّ نبيا إلا بلغة قومه" (رواه الإمام أحمد في مسند أبي ذر).

وقد اتسع استخدام لفظ اللسان بهذا المعنى المجازي في العصر الجاهلي، وازداد اتساعا إلى أن نازعه لفظ "اللغة" مكانه حتى أزاله عنه وأصبحت له الغلبة في الاستخدام الحديث.

أما اللغة في المصطلح فهو حسب ابن جني: "حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم.[٦] فاللغة ذات طبيعية صوتية وذات وظيفة اجتماعية، فهي أهم وسائل الاتصال الإنساني من حيث الدلالة، والتعبير والتبين والاتساع. وهذا التعريف يتضمن العناصر الأساسية لتعريف اللغة. ويتفق مع كثير من التعريفات الحديثة للغة، فهو يوضح الطبيعية الصوتية للغة ويؤكد أن اللغة أصوات، وهو بهذا يستبعد الخطأ الشائع الذي يتوهم أن اللغة في جوهرها ظاهر مكتوبة. وبين تعريف ابن جني وظيفة اللغة الاجتماعية، وهي التعبير والتواصل، وأن لها إطارا اجتماعيا، ومن ثم فهي تختلف باختلاف الجماعة الإنسانية.

وبذلك يوضح تعريف ابن جني طبيعة اللغة من جانب ووظيفتها الاجتماعية من جانب آخر، وقد أطلق لفظ اللغة قديما على اللغة عامة كما أطلق أيضا على اللهجات، فقد كانت لهجات العرب تسمى لغات.

لقد اقترب مفهوم ابن جني للغة من المفهوم الحديث الذي يرى أن اللغة نظام من العلامات المنتظمة تقوم بوظيفة اتصالية ويترتب على تعريف اللغة بأنها نظاممناقشة وظيفتها الاجتماعية، فهي تؤمن وتضمن تبادل المعلومات وتتضمن حفظها وتراكمها في المجتمع الذي يستخدمها.[٧]

ويقوم ابن خلدون هو الآخر تعريفا متقدما في مقدمته فيقول: اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئة عن القصد لإفادة الكلام، فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان،

---

[٥] أساس البلاغة: محمود بن عمر الزمخشري، دار صادر، ص:٥٦٨، مادة لغو.

[٦] الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، ط. ٣ / ...هـ، الهيئة المصرية العامة لكتاب، ج ١ / ٤٣.

[٧] سيموطيقا للسينما، بوري لوتمان، ترجمة نصر حامد أبو زيد، مدخل إلى السيمو طيقا، ص: ٢٦٦.

وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم.[٨] فاللغة عنده أصوات قبلت عن قصد لإفادة معنى، واللسان الأداة التي تنتجها. ويقول في موضع آخر "اللغة ملكة في اللسان، وكذا الخط صناعة ملكتها اليد".[٩]

ويرى ماريو باي أن "هذه التعريفات الواسعة لاتقتصر اللغة على صورتها المتكلمة فقط بل تحوي إلى جانب ذلك الإشارات، والإيحاءات وتعبيرات الوجه، والرموز من أي نوع، مثل إشارات المرور، والأسهم وحتى الصور والرسوم، وكذلك دقات الطبول الخاصة في أدغال أفريقية وإطلاق الدخان بطريقة معينة بين الهنود الأمريكيين".[١٠]

فاللغة نظام من الرموز متكامل يعطي دلالات ذات معنى، في التواصل بين الكائنات الحية، وهذه الرموز تتمثل في اللغة التي يتعامل بها الإنسان، والتي تعد أكثر تركيبيا وتعقيدا، والمتمثلة في الكلمات ذات الدلالة، ولكن هناك أشياء أخرى غير لغوية، ولكنها تؤدي دلالات ذهنية في التواصل الاجتماعي، وإن كانت محدودة الدلالة، ولاتبلغ درجة اللغة مثل الصفير والصراخ وأصوات الألم والبكاء والضحك وغير ذلك من الأصوات ذات الدلالة على المواقف ويدخل في ذلك الشكل والزي والحركة والهيئة واللون والعلامات مثل إشارات المرور، والإشارات الضوئية التي تعطي دلالات معينة في مجالات التواصل الإنساني.[١١]

وهناك فرق بين اللغة التي يتواصل بها الإنسان وتلك الأشياء، فاللغة (الكلام) نظام إنساني يعتمد على الفكر والقدرة على الإيضاح والتعبير، أما الحركات والأصوات والزي واللون فليست لغة، وإنما هي رموز ذات دلالات خاصة ومحدودة.

واللغة ملكة أنسانية مصدرها الجهاز النطقي عند الإنسان، وهذا لايعني استبعاد الرموز من وظائفها الاجتماعية، فاللغة تفسر أحيانا في إطار تلك الرموز التي تشارك مشاركة فعالة في التواصل الاجتماعي، وفي الخطاب اليومي الشفهي، وتبقى اللغة هي من أهم وسائل الاتصال الإنساني وأكثرها دلالة وانتشارا وأسرعها فهما.

فالإنسان وحده لديه القدرة على ابتداع واستعمال اللغة الرموزية، فاللغة عامة مجموعة من الحروف أو العناصر، والقواعد التي تتحكم في تركيبها واستخدامها، واللغة التي يتكلمها الإنسان مثل: العربية، والسنسكرتية، والإنجليزية لغة طبيعية، ولكن الإنسان تمكن من وضع رموز تؤدي دلالات الكلمات والحروف ونظام الرموز ولغة الإشارة، والحركة. وقد استخدم الإنسان هذه العلامات طبقا للاحتياجات البشرية الخاصة وهذه الرموز تم عليها الاتفاق بطريقة عشوائية، تؤدي دلالات معينة في حقل استخدامها الذي اصطلح على دلالتها.

---

[٨] ابن خلدون، المقدمة، ص: ١٢٥٤.

[٩] نفس المصدر، ص: ١٢٥٤.

[١٠] أسس علم اللغة: ماريو باي، ترجمة أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ص: ٢٩، (الدكتور محمود عكاشة، علم اللغة مدخل نظري في علم اللغة، ص: ١٨، دار النشر للجامعات، قاهرة، ٢٠٠٨.

[١١] مدخل إلى علم اللغة: الدكتور حجازي، ص: ١٠،١١. دار الثقافة، ط. ٢.

والرموز بيانات على هيئة أشكال وحروف وكلمات وأشياء وأفعال ترمز لشيء إلى جانب ترميز نفسها أو الدلالة على نفسها قبل "العلم" الذي يرمز إلى شعار الدولة له دلالة خاصة في وجدان مواطني هذا البلد. إلى جانب أنه علم مصنوع من قماش أو غيره وله لون معين.

والإنسان وحده له القدرة على وضع الرموز وتطويره إلى جانب أنه يتأثر به ويتفاعل معه، ويحمل له دلالة ذهنية أو تصورا.

نشأة اللغة ومراحل التطوير

نشأة اللغة الإنسانية أو الأشكال الأولى التي ظهرت عليها أولى اللغات ومظاهرها أو بحث أصل اللغات الأولى وهي اللغة الأم التي تفرعت عنها اللغات وتسمّى هذا المجال أصل اللغة أو نشأة اللغة.

ويأتي فيها حياة اللغة، وما يعتورها في الأصوات، والبنية الصرفية، والتراكيب والدلالة والاتساع والضيق والارتقاء والانحطاط، وما تتعرض له من انقسامات على لهجات وصراعها مع غيرها، وما ينجم عن صراعها من استمرار أو موت أو غلبة أو اتساع أو انحسار وتلاشي أمام غلبة لغة أخرى، واللغات المشتركة، ويسمى هذا المجال حياة اللغة (language Vi Du)

ولابد من البحث في هذا الإطار من علاقة اللغة بالمجتمع الإنساني والنفس والبشرية، وهذا من الضروري أن يكون هناك بحث عن علم الاجتماع وعلم النفس، وذلك من خلال العلاقة بين اللغة والإنسان في حياته الاجتماعية، وأثر الاجتماع وحضارته ونظمه وتاريخه وتركيبه وبيئته الجغرافية في مختلف الظواهر اللغوية، والعوامل النفسية بمختلف أنواعها من تفكير وخيال وعواطف ومشاعر وانفعالات.

مسئلة نشأة اللغة قديمة، وهي لاتزال موضوعا للبحث العلمي والحوار الجدي لفترة قرون. وازداد البحث في يومنا هذا خاصة بعد ما اكتشف الإنسان أشياء جديدة، وقطع مسافات علمية غير منقطعة النظير، واستطاع أن يدرس المخطوطات القديمة كما استطاع أن يفهم لغات الطيور والحيوانات، فهذه الاكتشافات ربما تساعد على المعرفة الجديدة تجاه التاريخ الإنساني والحضارة البشرية كما تساعد على اللغة التي تكلمها البشر الأول، وهذا الفهم سيؤدي إلى علم القيم والعادات التي مارسها هذا البشر كما يؤدي إلى معرفة تاريخ الدين ومفاهيم المجتمع والثقافة.

وهذه أهمية للبحث الذي أثار العلماء والباحثين الهنود، فبحثوه ضمن قضايا اللغة التي بحثوها، كما بحثه أيضا علماء يونان.

وقد شغل هذا الموضوع الباحثين قديما وحديثا. ولاشك أن قضية أصل اللغة أو قضية نشأة اللغة أو من أين عرف الإنسان بها ومتى عرفها مهمة جدا؟ فقد تباينت الآراء في هذا الموضوع. ولايوجد توافق في الآراء حول الفعل الأصلي. والسبب الأساسي المباشر لهذا الاختلاف هو انعدام الدليل الواضح حيث يشكل العثور على اللغات في شكل أحافير كما هو حال الأشياء الأخرى الملموسة، فلا بد لنا أن نستخلص الاستنتاجات من الأدلة الأخرى كسجل

الأحافير والأدلة والأثرية وأيضا من التبرع اللغوي المعاصر ومن دراسة اكتساب اللغة أو المقاربات بين لغات البشر ونظم التواصل بين الحيوانات، وهذا طريق في حل كل المجهولات فإننا نجد هداية من المعلوم إلى المجهول.

ففي الوقت الراهن نجد كثيرا من المفروضات عن كيف، ولماذا، ومتى وأين ظهرت اللغات. فدعنا نبحث عن هذه المفروضات وأشهرها:

أولا: اللغة إلهام من الله

قد ذهب كثير من العلماء الأقدمين أن اللغة وحي من وحي الله، فهو علم النطق وأسماء الأشياء، وقد ذهب إلى هذا الرأي الفيلسوف اليوناني هيرا كليت (Heraclite) (ت٢٨ق م) في العصر القديم. وهذه النسبة غير يقينية، لأن الوحي يرتبط بالأديان السماوية ولهذه النظرية كانت صدى في العهد القديم الذي أشار إلى أن الله تعالى علم آدم الأسماء الأشياء. وأيد أبو علي الفارسي هذا الرأي، وأكده تلميذه (أبو علي الفارسي) ابن جني.[١٢]

وأكثر علماء العربية ذهبوا خاصة إلى هذه النظرية، واستدل أصحاب هذا الرأي بالدلائل النقلية والعقلية، فقال ابن جني "أقول إن لغة العرب توقيف" واستدل بقوله تعالى: "وعلم آدم الأسماء كلها" فكان ابن عباس يقول: "علمه الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وحبل وحماء وأشباه ذلك من الأمم وغيرها.[١٣]

ورأى بعض الأصوليين هذا الرأي، فذهب الأشعري وأهل الظاهر وجماعة من الفقهاء إلى أن الله تعالى هو الذي وضع اللغة وعلمها آدم بالإلهام أو الوحي. وقد اعتنق هذا الرأي بعض رجال من أهل الكتاب، وأشهرهم الأب الفرنيسي لامي (ت ١٧٧١م) في العصور الوسطى، واستشهد على ذلك بما جاء في العهد القديم: "والله خلق من الطين جميع حيوانات العقول، وجميع طيور السماء، ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها وليحمل كل فيها الإسم الذي يضعه له الإنسان، فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول.[١٤]

وهذا الاتجاه قد يصح وقد لايصح أما الصحة فإن الله تعالى علم أدم اللغة، لأنه الخلق الأول وليس له سابق يتلقى عنه، فعلمه الله تعالى أسماء كل شيء بوحي أو إلهام. فآدم كان يتلقى من ربه سبحانه وتعالى، أو أن الله تعالى وهبه القدسعلى الكلام فتكلم بمشيته وخاطب آدم وزوجه وأولاده بما تعلمه من ربه.

والاتجاه الذي لايصح أن نزعم أننا تلقينا اللغة من آبائنا توفيقا أو وحيا، فإن ذرية آدم تعاقبت في نقل لغات الأولين وتوسعت فيها، وغيرت وتأثرت لغاتها بعوامل خارجية واجتماعية، فاختلف لسانهم الأول إلى لهجات ثم تطورت اللهجات إلى لغات مستقلة، فاللهجة تصبح لغة إذا تمكنت من الاستقلال عن قيد اللغة الأم. ولايسمى اللغات التي يتكلمها الأمم المختلفة وحيا أو توفيقا، لأنها لو كانت هي اللغة نفسها ما اختلفت وظلت لغة واحدة من لدن آدم حتى الآن.

---

[١٢] الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني، ط. ٣ / ١٤١٨هـ، الهيئة المصرية العامة لكتاب، ج ١ / .... الطبعة الجديدة، ٢٠٠٦، من عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع.

[١٣] الصاحبي لإبن فارس، ج ١ / ص: ١٥.

[١٤] نشأة اللغة عند الطفل: الدكتور عبد الرحمن وافي، م، دار نهضة مصر، ص: ٣٠،٣١.

ثانيًا:

يرى أصحاب هذا الرأي أن الإنسان هو الذي وضع اللغة، وأنه تكلم فجأة مستمدا من المناظر الطبيعية، واصطلح عليها بالتواضع والاتفاق في التواصل اليومي، وهذا مذهب المتكلمين والمعتزلة، وفسر ابن جني ذلك على النحو التالي: "وذلك أنهم ذهبوا إلى أن أصل اللغة لابد منه هي المواضعة، قالوا ذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا، فيحتاجون إلى الإبانة من الأشياء والمعلومات، فيضعون لكل واحد منها سمة ولفظا، إذا ذكر عرف به ما يسماه، ليمتاز عن غيره، وليغنى بذكره عن إحضاره إلى مرأة العين، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف إحضاره لبلوغ الغرض في إبانة حاله. بل يحتاج في كثير من الأحوال إلى ذكر ما لايمكن إحضاره ولاإدناؤه، كالفاني، وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد كيف يكون ذلك لوجاز، وغير هذا مما هو جاز في الاستحالة والبعد مجراه، فكأنهم جاءوا إلى واحد من بني آدم، فأومأوا إليه، وقالوا إنسان إنسان إنسان، فأي وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق، وإن أرادوا سمة عينه أو يده أشارو إلى ذلك، فقالوا يد، عين، رأس، قدم و نحو ذلك، فمتى سمعت اللفظ من هذا عرفت معنيها، وهلم جرا فيما سوى هذا من الأسماء والأفعال والحروف.[١٥]

ثالثا:

اللغة ليست إلا محاكاة الأصوات ويعتقد أصحاب الرأي عن نشأة اللغة أنها حدثت من محاكاة الأصوات التي تصوغها الأذن، فالمتحدث يحاول محاكاة الصوت حسب استطاعته ويعبر عن هذا الصوت في تواصله مع عامة الناس بطريق يعلم منها السامع مايريد المتحدث.

فالصوت علامة دالة على شيء مخصوص يعلمه السامع إذا يتردد الصوت لديه كما يعلم المدلول الآخر من الدال والعلامة مثلًا علامة + على الدكتوراة.

فالأصوات التي يخرجها أو يتابعها الإنسان ويرددها هي الأصوات التي يسمعها الإنسان في محيطه الاجتماعي والبيئي مثلا:

الأصوات الذي يخرجها الإنسان معربا عن أحاسيسه كالبكاء والضحك والألم والفرح والصراخ هي في الحق أصوات مظاهر الطبيعة مثلا: خرير المياه، والبرق، والاصطدام وكسر الزجاج والرياح والرعد وصوت الضرب والقطع كما هي مستمدة من أصوات الحيوانات كلقطط والكلاب والأسد والفيل والحمار والفرس والغنم والبقرة وما إلى ذلك.

ولا ريب أن هذه الأصوات بمثابة المصادر الأساسية التي يتكلمها الإنسان قد مرّت عليها الدهور ومضت عليها القرون ودارها الدور فتطورت وارتقت في ظل المجتمع البشري حتى أصبحت لغة مستقلة وسيلة المواصلة والإبلاغ.

وربما تحاكى الألفاظ بنفسها معانيها أو ما تدل عليها، ولكنها لاتشكل معظم اللغة، لأنها تكون في مجال محاكاة الأصوات فقط، ولا توافق في كل المسميات. مثل: القطعية: هي تتابع الأصوات في الحرب وغيرها، والغطغطة: صوت

[١٥] الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني، ص: ٥٣،٥٤، ط. ٣، ١٤١٨هـ. الهيئة العامة المصرية للكتاب، الطبعة الجديدة، ٢٠٠٦هـ، من عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع. فقه اللغة: د. محمد خضر، ط: ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص: ٩٣.

غليان القدر وما أشبهه، والمعجمة: صوت ترديد الفرس بدون الصهل، والحفحفة: حفيف جناحي الطير، والجرجرة: صوت جرع الماء في جوف الشارب، والخرخرة: صوت ترديد النفس، وصوت جري الماء في المضيق. وهكذا الدردرة (حكاية صوت الماء في بطون الأودية وغيرها إذا تدافع سمعت له صوتا. وكذلك صوت الحب عند اصطدامه بجسم، والغرغرة: صوت ترديد الماء في الحلق من غير مج ولاإساغة. والقرقرة: صوت الشراب في الحلق. والقهقهة: صوت استغراب الضحك. والوعوعة: صوت نباح الكلب إذا ردده. والوقوقة: اختلاط أصوات الطير. والكركرة: الضحك. والقرقرة: حكاية الضحك. والوشوشة: حركة القوم.[١٦] ومن العجب أن الطفل إذا يكون في مهد الأم، يعرف الأشياء من خلال أصواتها ويسمها بأصواتها.

أما هذه النظرية (نظرية محاكاة الأصوات) فلها جذور قديمة وهي ليست بحوث حديثة. ورجح ابن جني هذه النظرية فهو يقول: وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح وخرير المياه وبريق الرعد ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونحو ذلك. ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد، وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبل. وهذا الرأي يؤكد أن اللغة نشأت في فترة مبكرة معاصرة لبدء الإنسان في الأرض، ومرت بمراحل تطور عديد ووصلت إلينا مكتملة، واحتضنت في طياتها كل ما أعربت عنه حقا من أصوات مسموعات نقلتها وما أظهرت عنه من خيالات وأحاسيس تداعت إلى ذهن الإنسان، فاللغة ظاهرة إنسانية تأثرت بالإنسان وحياته وعاداته وقيمه وطرق عيشه، وأصبحت وسيلة التعبير عن كل ما يتعلق به، ووسيلة التصوير للحياة الإنسانية وقصة حضارتها.

ولا ريب أن اللغة في بعض نواحيها تظهر محاكات المسموعات المعلومة في الطبيعة، وهذا في بداية الأمر، والأمم البدائية مهما كانت تميل إلى تمثيل الأصوات التي سمعتها في الفضاء، فحاولت أن تنقل وتعرف بها المدلولات، والأشياء التي لا تصدر صوتا تعبر عنها بالإشارة أو الحركة أو تمثيل هيئتها. وهذه المحاكات ربما تختلف من مكان إلى مكان، وهذا يعتمد على المشاهدة والسماع.

رابعًا:

نظرية التطور: هذه النظرية تقول بأن الإنسان يعبر عن نفسه أولا بالحركة والإشارة حتى تكاثرت الأشياء التي يريد التعبير عنها، فجسد الإنسان هذه الأشياء فيشير إلى الغراب فيقول: غاق أو إلى الحصان فيقول: حم حم، ويعير عن القطع والقص وسقوط الحجر بـ "طق" ولذا نرى أن الإشارات والحركات تشابه كثيرا فيما بينها. فالإشارة الرائجة في الهند كالإشارة في بلاد أمريكا. ولكن حينما حاول الإنسان أن يجسد هذه الإشارات فجسد حسب ما زعم معناها، فشرح حسب فكرته، فاختلفت اللغات وتوافق الإشارات في أداء المعاني، وهناك رأي أن الكلمة وضعت في أول أمرها على هجاء واحد في بدء الوضع حكاية أصوات، ثم وضعت الحروف في فترة لاحقة، فقد كان التفاهم في الطور الأول بأصوات متقطعة لابجمل ثم تطورت الأصوات إلى كلمات ذات مقاطع متصلة فصارت تركيبا لفظيا، ثم حدث تطور آخر

[١٦] المزهر: لجلال الدين السيوطي، ص: ٥٢،٥٣، تحقيق محمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي التجاري منشورات المكتبة المصرية، بيروت، ط: ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م. وارجع لمعانيها إلى الجمهرة لابن دريد والقاموس المحيط للفيروز آبادي. الخصائص، طبعة المكتبة التوفيقية، ج ١، ص:....

ربما بزيادة أو نقص وطورا بالتصريف والنحت. ثم تطورت اللغة بتطور المجتمع. فبدأت اللغة سفرها من أرض سهل إلى أرض التعقيد/الجبال. وأرى أن هذه النظرية توافق نظرية "محاكاة الأصوات للمسموعات" من حيث أن اللغة في بدايتها كانت بسطة وسهلة لكثرة اعتماد هذه الأمم في ذلك الوقت على الحركات والإشارات والأصوات التي أغنتهم عن كم كبير من المفردات. فنجد في هذه اللغات البدائية عددا كبيرا من الكلمات التي تتحاكى الأصوات. ونجد هداية من أصوات الطفل في تأييد هذا الرأي من حيث أن الطفل في أول عمره يلفظ أصواتا ساذجة ثم يبدأ الحديث في أصوات متقطعة فينطق ما، با، ماما، بابا، فهو يخير أخف الألفاظ، حتى تقوي عضلات اللسان لديه فيحاول تركيب الألفاظ المتقطعة ثم يلفظ الكلمات والجمل.

خامسا:

نظرية انبعاث اللغة عن رغبة الإنسان في التعبير: هذه النظرية تؤكد على أن النوع الإنساني بطبيعته يستطيع أن يعرب عن كل معنى حسي أو معنوي بكلمة خاصة. وتبنى هذه النظرية ماكس مولر (Max Muller) الألماني (ت ١٩٠٠م) والعالم الفرنسي رينان (Renan) (ت ١٨٩٠م). وبعض العلماء يعتقدون أن هذه النظرية جديدة بين النظريات الأخرى، بينما وجدت هذه النظرية عند الفيلسوف الكبير ابن سينا أن اللغة متفجرة من معين الطبع الذي يتفجر في تخصيص معنى بصوت يعبر عنه. وفي ألفاظ ابن سينا:

"فالإنسان لديه قوة حسية ترتسم فيها الأمور الخارجية، وتتأدى عنها إلى النفس، فترتسم فيها ارتساما ثابتا، وهذه الأشياء الحسية التي ارتسمت، قد تنقلب عن هيئتها الحسية أو المحسوسة إلى التجريد المعنوي".[١٧]

وهناك آراء أخرى، منها: أن اللغة هي نتيجة الرغبة الإنسانية في الرمز إلى الأشياء برموز معروفة أو برموز تدل عليها.

ومنها: أن اللغة منبعثة عن جوانب انفعالية مثلا: الرغبة في بيان مظاهر الفرح والحزن بالألفاظ دون الحركات والإشارات أو بيان العواطف الداخلية.

ومنها: أن اللغة نتيجة فجائية لدوافع اجتماعية وهي الرغبة في التواصل، وتحقيق المقاصد، فحدثت اللغة للمجتمع ليتواصل بها ويتميز بها عن غيره من المخلوقات.

وما أظن بعد التفكير في هذه الآراء أن الإنسان يمتاز بملكة التكلم كما يمتاز بملكة الفكرة والعقل، فإن الإنسان وهب له القدرة على التعلم والفكرة ووهب له أيضا صفة الصوت. والإنسان هو الواحد بين جميع المخلوقات الذي أعد له العقل وقدرة الكلام الذي يتميز به من سائر الحيوانات التي تخرج صوتا واحدا لايتنوع ولايتغير ولايتطور ولايزيد فيه شيئا. أما الإنسان فملكته الكلامية وقدرة التعبير تمكنه من تعبير ما يرى ومحاكاة ما يسمع، كما تمكنه القدرة الفكرية من اختراع أصوات جديدة ورموز متنوعة.

[١٧] العبارة لإبن سينا، تحقيق محمد الحضرمي، الهيئة العامة للكتاب، ص: ٣

مهما كانت النظريات والأراء وهي لا تهمني، ما يهمني هي الوسائل والطرق لاحتفاظ اللغة. دع ما حدث في الماضي ودع البحث عن كيفية نشأة اللغة، وركز على الطرق والسبل التي تساعدنا على إحياء اللغة، فإن كل لغة مرت عليها العصور ودار عليها الدهر وهي تحتضن في أحضانها كنوز المعرفة والتجربة. فمعنى لغة موت، موت العلم والمعرفة. هذا من أهم ضروريات العصر ونداء الوقت، ولو كنا لا تلبي هذا الطلب فتضيع الخزائن والكنوز وتغلب عليك بعض الأفكار والرؤى التي تختلف أو ربما تضرك من حيث أنك لا تعتاد هذه التجربة. فلا بد أن يبقى العالم مع عدة اللغات ليحظى كل قوم بمناهل عرفانه.

المصادر والمراجع

ابو الفضل مُحَمَّد بن مكرم (د.س). **لسان العرب**. دار صادر: بيروت

حسن هنداوي (١٩٩٣). **سر صناعة الإعراب**. دراسة وتحقيق. دار القلم: دمشق

أبو الفتح عثمان بن جني: تحقيق مُحَمَّد علي النجار (١٩٨١). **الخصائص**. الهيئة ا لمصرية العامة للكتاب: القاهرة.

محمود بن عمر الزمخشري (د.س). **أساس البلاغة**. دار صادر: القاهرة.

ابن خلدون (د.س).**مقدمة ابن خلدون**. دار يعرب: بيروت

ماريو باي؛ ترجمة أحمد مختار عمر (١٩٩٨) **أسس علم اللغة**. عالم الكتب: بيروت

الدكتور حجازي (٢٠٠٣). **مدخل إلى علم اللغة**. دار الثقافة: القاهرة. ط. ٢.

الدكتور عبد الرحمن وافي (١٩٨٠). **نشأة اللغة عند الطفل**. دار نهضة مصر: القاهرة.

جلال الدين السيوطي (١٩٨٧). **المزهر**. تحقيق مُحَمَّد جاد المولى ومُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، وعلي التجاري. المكتبة المصرية: بيروت.

إبن سينا (د.س). **العبارة**، تحقيق مُحَمَّد الحضرمي. الهيئة العامة للكتاب: القاهرة.